مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــ المجلد: 12 / العـدد:02 (نوفمبر2024) ص 666– 676
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

نظام النحو العربي وتكامل علوم العربية بين نظر ابن جني واللسانيات النصية الحديثة. تحليل ومقاربة ، قراءة في المصطلحات والمفاهيم

The system of Arabic grammar and the integration of Arabic sciences between the view of Ibn Jinni and modern textual linguistics. Analysis and approach, reading terms and concepts

عبد الكريم حمّي[1]، محمد العيد رتيمة [2]
Abdelkrim Hammi [1], Mohamed elaid Retima [2]
1 جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، Abdelkrim.hammi@univ-alger2.dz
2 جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، retima@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/04/24	تاريخ القبول: 2024/09/30	تاريخ النشر: 2024/11/28

الملخص: تهتم هذه الدراسة بالوقوف على بعض معالم منهج الدرس اللغوي عند ابن جني وعلى بعض وجهات نظره في تحليل الظاهرة اللغوية في التركيب النحوي ضمن كتابه الخصائص من خلال مقاربة بينه وبين منهج الدرس اللغوي الحديث لإبراز أسس التنظير عنده ، إذ يعد من أوائل المنظرين للنظرية اللغوية عند علماء العرب القدماء ومن ثمّ هي قراءة في بعض المفاهيم التي تصورها والمصلحات التي اعتمدها في أسس التنظير للغة مع إبراز علاقتها بالنظريات التجديدية لعلم اللغة ومنهج البحث فيه على ضوء اللسانيات الحديثة .

كلمات مفتاحية: النظرية – النظام – علم نظري – علم اجتماعي– المقاييس – القياس – المنهج التكاملي – الاستنباط – الاستدلال الذهني – المعايير النصية ..... إلخ.

Abstract

This study is concerned with examining some of the features of Ibn Jinni's linguistic study method and on some of his views on analyzing the linguistic phenomenon in the grammatical structure within his book Al-Khasa'is through an approach between him and the modern linguistic study method to highlight the foundations of his theorizing, as he is considered one of the first theorists of linguistic theory among scholars The ancient Arabs, and then it is a reading of some of the concepts that it depicted and the reformers that it adopted in the foundations of language theorizing, while highlighting its relationship to the theories of modern linguistics and the research methodology in it from the perspective of modern linguistics.

Keywords: the theory / the system / Theoretical science / Social science / metrics / measurement / The integrative approach / Induction extrapolation / mental reasoning / textual criteria…..etc..

المؤلف المرسل: عبد الكريم حمي ، **الإيميل**: abouadnaneakrem0171@gmail.com

المقدمة:

إن النظرية العلمية بشكل عام والنظرية اللغوية على وجه الخصوص هي إطار مفاهيمي لجملة من التصورات والآراء والفرضيات والمبادئ والأسس الفكرية والعقلية تؤلف تأليفا عقليا إذ هي كلها عمليات ذهنية تهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات في إطار تنسيقي منظم ، وتستمد النظرية إطارها المرجعي من حقائق وجودية ومظاهر واقعية وملاحظات ، بحيث تكون تلك الحقائق قابلة للاختبار العلمي أو للتفسير المنظم لأنظمة تلك المظاهر بحيث يؤدي إلى استنباط قواعد وقوانين ، كما تكون قابلة للتنبؤ بمعنى الانتقال من المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول في أي مجال معرفي.

ومما لا شك فيه أن لعلم اللغة العربية نظرية لغوية وضع أصولها وأسسها علماؤنا القدماء منذ البدايات الأولى لنشأة النحو الذي يمثل علم اللغة ، إذ سمي النحوُ العربيةَ مجازاً باسم الكل ، كما سمي الإعرابَ باسم الجزء ، فاكتملت معالم النظرية بحلول القرن الرابع الهجري وهو العصر الذهبي للحضارة العربية ثم تفرعت عنها نظريات خاصة كنظرية البلاغة.

ويعد ابن جني من كبار أولئك المنظرين لعلم اللغة العربي القديم من خلال كتابه الفذ الخصائص إذ عرض فيه لكثير من خصائص الظاهرة اللغوية فكانت له نظرات خاصة انطلاقا من تعريفه النحو وحده اللغة اللذين كشف من خلالهما عن مفاهيم أقرب إلى التحليل اللساني الحديث وفق مبادئ البحث العلمي منها أن علم النحو وهو علم اللغة علم طبيعي وعلم اجتماعي وعلم نظري ثم كشف عن مصطلح القياس النظري والاستدلالي والمقاييس بمعنى المعايير إلى آخره، وعلى أساس تلك المفاهيم والمصطلحات انطلق بفكره اللغوي في إرساء معالم منهجه في الدرس اللغوي يقوم على التكامل بين مستويات اللغة وعلومها آخذا بالاعتبار الجانب النفسي والجانب الاجتماعي للتركيب اللغوي النحوي بما يتوافق مع وجهة نظر الدرس اللساني الحديث.

فما هي معالم منهج ابن جني في الدرس اللغوي وما الأسس الفكرية التي اعتمدها للتنظير وما الذي نقرؤه من مفاهيمه ومصطلحاته ، ثم ما علاقتها بمنهج الدرس اللساني الحديث وببعض نظرياته ؟

العرض : إن نظام اللغة عند القدماء وعبر نظرياتها القديمة هو كلٌّ متكامل من علوم اللغة جميعها (نحوها وصرفها وبلاغتها ودلالتها) ، غير أن علم النحو يمثل العمود الأساس للنظرية العامة للغة العربية، بالرغم من أنه يشكل نظرية خاصة، ويعد نظام الإعراب في الكلام أبرز ظواهر اللغة التي عني بها الدارسون من اللغويين والنحاة على السواء وعكفوا على دراستها ، فمن خلال اهتمام اللغويين بالأنظمة قامت نظريات لغوية تدرس اللغة من خلال

رصد الأنظمة اللغوية وتسجيلها ، لأن النظام يمثل مختلف الوجوه التي تستعمل عليها التراكيب اللغوية وفق قواعد مطردة تشكّل في مجموعها ظاهرة ما هي الإعراب بالنسبة إلى اللغة العربية.، فالنحو إذ هو علم التراكيب اللغوية، يجمع الدارسون على أن ما عرفه به ابن جني (ت:392هـ) في (الخصائص) هو أشمل تعاريف النحو ، ذلك أنّ التركيب اللغوي أو النحوي عند ابن جني وفي نظره هو كلام ، والمتصرف في إعرابه هو المتكلم ، ومن هنا جاءت فكرة العمل الإعرابي للمتكلم. فالمتكلم هو الذي ينحو بكلامه إلى معرفة كيفية نظم الكلام وتركيبه على أنساق متنوعة توافق كلام العرب ، وتطابق ما يكون عليه من هيئات وصور للأنظمة ، هي في مجملها مستنبطة من كلام العرب بالسماع والاستقراء والقياس ، ومن هنا يتبين أنّ علم النحو هو علم نظري لأن قواعد نظام التركيب اللغوي استنبطت منه بالسماع والاستقراء والقياس لمختلف ظواهر الكلام التي هي طبيعية فيه، بما يشكل نظرية قائمة بأصولها على أسس فكرية نظرية كفكرة العمل الإعرابي، وهو في نظر ابن جني من عمل المتكلم، وكفكرة الأصل والفرع وغيرهما.

وعلى أساس ما سبق اتجه كثير من النحاة كصاحب المقرب ابن عصفور مثلاً إلى حـدّ تعريف النحو بأنه علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، أو هو علم بتلك بالمقاييس أو الأقيسة ، أي بمعنى إدراكها بالنظر ، لأنه علم نظري ، وعلى هذا ، فالنحو هو صناعة علمية لأن طبيعته هي صناعة علمية تقود إلى إتقانها معطيات نظرية ، وبنظري أنه ليس المقصود بالمقاييس والأقيسة الأوزان التي في علم الصرف وحده، بل يراد بها القواعد والقوانين في هيئة تركيب الكلام ونسقه عند تغيير ذوات الكلم ، كما عند تغيير أواخرها في الإعراب. وهكذا، فلكل علم أو فن مقاييسه وقوانينه وضوابطه: كالمقاييس الفنية للشعر والنقد والمقاييس الاجتماعية، والمقاييس العلمية بصفة عامة .

وإذا كان حــدُّ النحو هو العِلم بالمقاييس المستنبطة من كلام العرب أو هو صناعة علمية ، فإنه تتوفر فيه خصائصُ العلم المضبوط؛ وهي: الموضوعية، والشمول، والتماسك، والاقتصاد ، وتلك هي بعض شروط النظرية العلمية الصحيحة وقد توفرت في نظرية النحو العربي عند القدماء، كجزء من الشروط العامة لكل نظرية لغوية وهي: « العموم التجريد والاكتمال والبساطة والاقتصاد والاتساق العام والكفاية في وصف اللغات وصلاحيتها للتطبيق على أكبر قطاع من اللغات .... أما الشروط الضرورية التي يرى اللغويون لزوم توافرها في النظرية اللغوية ويقوّمون النظريات اللغوية المختلفة في ضوئها ، فهي خصائص: العموم والبساطة والكفاية في وصف اللغة.» (عبد الدايم، 2006م، صفحة 22).

ولأن النحو هو علم العربية وهو الإعراب بمفهومه الواسع ، فإنه بنظريته يعدُّ العلم الشامل لكل ما يتصل بالتركيب اللغوي، وهو جزء لا ينفصم عن بقية علوم العربية، بل هو العربية ذاتها، فعن علاقة علم الصرف بالنحو يدرك كثير من الدارسين أن معظم مباحث النحو تجمع بين قواعد النحو وقواعد الصرف بما يتناول أحكام المفردات والتراكيب في آن واحد ؛ وبذلك حدّه ابن جني . فعلم النحو هو مُرادِفُ علم العربية لا قسيمُ علم الصرف ، وقد تابع الخضراويُّ ابن جني في هذا الاتجاه ، كما نجد ابن جني من خلال تعريفه للغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم يكون قد كشف عن الجانب الطبيعي لعلم النحو بما يشتمل عليه التركيب من مظاهر نحوية تتعلق بالإعراب ونظام العلاقات بين عناصره ، كما كشف عن الجانب الاجتماعي للغة بوصفها أداة التواصل من خلال ربط المباني بالمعاني ، وهذا ما يجسده علم البلاغة في ما يسمى بعلم المعاني.

وعلاقة النحو بعلم البلاغة بارزة لدى كثير من علماء اللغة والنحو ، لأن تمام علم النحو بعلمي المعاني والبيان ، وكل مقولات أولائك العلماء دلائل على أن علم النحو وعلم البلاغة صنوان لا ينفصمان ، بل هما وجهان لعملة واحدة هي اللغة ، وكلاهما يشمل التركيب اللغوي في مبناه وفي معناه، فحدُّ النحو لا يقتصر على الإعراب والبناء ، بل إن مواضيعه شاملة لكل مستويات اللغة، وهذا ما اعترض به محمد الخضر حسين الجزائري على إبراهيم مصطفى بسبب سوء فهمه لمواضيع النحو، إذ عَقَّبَ على قول ابن كمال باشا بقوله :« وهذا صريح في أن بحث علم النحو لا يقف به النحويون عند حد الإعراب والبناء، ولا يجعلونه دائراً على هذا الحال كما يدّعي صاحب كتاب "إحياء النحو"..» (الخضر حسين الجزائري، 2010م، صفحة 6 \ 1 \ 188)

ثم علاقة النحو بالدلالة العربية أوردها ابن جني نفسه في " الخصائص " جاء في "باب الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية " قوله عنها مركزاً على قيمتها وأثرها في أداء الكلام:« اعلم أن كل واحد من هذه الدلائل معتدّ مراعىً مؤثِّر؛ إلا أنها في القوة والضعف على ثلاث مراتب: فأقواهن الدلالة اللفظية ثم تليها الصناعية ثم تليها المعنوية وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قبل أنها ، وإن لم تكن لفظا ، فإنها صورة يحملها اللفظ ، ويخرج عليها ، ويستقر على المثال المعتزم بها.... ولنذكر من ذلك ما يصح به المثل. فمنه جميع الأفعال.» (ابن جني، الخصائص، صفحة ج 3 \ 100 ـ 101)

فابن جني يرى أن للفعل ثلاث دلالات : دلالة اللفظ ، دلالة الصيغة (الدلالة الصناعية) ، ودلالة المعنى ، ولا ينبغي للدراسة اللغوية أن تقتصر دراسة التركيب في الجملة الفعلية مثلاً على واحدة منها دون أختيها لطبيعة التلازم بينها ، كما نجد أبا حَيَّان النَّحْوي (654 – 745 هـ = 1256 – 1344 م) يوافق ابن جني في أن للفعل

ثلاث دلالات ، إذ هو يدل على الحدث بلفظه، وعلى الزمان بصيغته ، وعلى المعنى بفاعله ، فابن جني وأبو حيان النحوي وغيرهما يدركان تلك العلاقة بين مستويات الكلام ويفسرانه بحسبها ، لأنهُما لغويّان بخلاف السيوطي الفقيه الحافظ.

فهكذا أرسى القدماء دعائم النظرية الأولى للنحو العربي (نظرية العامل) ، وهي نظرية العوامل بنوعيها : اللفظية والمعنوية ، وأقاموا عليها نظام العربية كنظرية شاملة لجميع علوم اللغة مجتمعةً ، ومن ثمّ جاءت نظرية النظم عند الجرجاني ـ التي نسبت إلى البلاغة ـ لتوثق الصلة أكثر بين علم النحو وعلم البلاغة ولتبرز التكامل والشمول بينهما، فما قامت تلك النظرية إلا على أسس علم النحو وقواعد صناعته وهي لا تنفك عنه بأي حال ، لأن دراسة النحو عند القدماء لا تخرج عن مجال علم اللغة بشكله العام وبجماع علومه وعلى مستويات اللغة بصورتها المتكاملة .

وعلى أساس ما سبق ذكره يعدّ كتاب الخصائص لابن جني مدونة كبرى في مجال علم اللغة ، ذلك أنه لا يختص بأحد علوم اللغة دون آخر فحسب ، بل يتعدى إلى دراسة كثير من قضايا اللغة ومشكلاتها ، فبالرغم من اشتماله على أبواب تخرج عن هذا النطاق، كبحثه في الفرق بين الكلام والقول، وبحثه في أصل اللغة: إلهام هي أم اصطلاح؟ وغيرها ، إلا أن معظم مباحثه تختص ببعض المشكلات الجوهرية المرتبطة بنظرية علم اللغة العربية ، ولا نتحرج إذا قلنا أن كتاب الخصائص قد تعدّى مجال البحث في خصائص اللّغة العربية وعلومها على عادة نظرائه من علماء اللغة القدماء ليشمل اللغة في بُعدها التداولي ، ولئن كان في نظر أولئك الدارسين أن بحث ابن جني في الفرق بين الكلام والقول، وبحثه في أصل اللغة: إلهام هي أم اصطلاح؟ وغيرها هو خروج عن مجال دراسة اللغة في علومها، فبرأيي الشخصي أعتبر أن ذلك توسعٌ في مجال البحث وسبقٌ إلى التعمق فيه ، فإلى جانب تكامل علومها نرى أن منهج ابن جني يشمل اللغة في أدائها الاستعمالي ، لأن كتاب الخصائص مبنيّ على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي ، وحسب منهج ابن جني في دراسة اللغة ـ إذ يرى أن محدث الكلام واللغة هو المتكلم نفسه ـ لا يكون أداء اللغة واستعمالها إلا وفقاً لمقاييس أول من نصّ عليها من العلماء العرب القدماء هو ابن جني في الخصائص ، وعقد لها باباً بأكمله في ذلك الكتاب ، سمّاه : باب " في مقاييس العربية".

والمقاييس في معناها اللغوي هي المعايير وهي الأسس، والقواعد بالنسبة إلى علم النحو منفرداً ، وهي الأوزان والصيغ والأبنية بالنسبة إلى علم الصرف وحده ، إذ بهذا المعنى سمي معجم ابن فارس " مقاييس اللغة " ، فلا ينبغي أن نقصر فهمنا لها على أنها مجرد عوامل لفظية ومعنوية، والمقاييس التي أشار إلى بعضها ابن جنى ـ

وهو من جمع بين علمي النحو والصرف والدلالة ، كما حاول أن يتوسع بهما إلى المستوى التداولي ـ فأرجّح أنها هي نفسها المعايير النصية على مستوى الكلام لدى الفرد المتكلم ، و لكنّ مبلغ فهم ابن جني أنه قصرها على ما يتصل بالكلام لفظاً ومعنى ، إذ هو لم يتوسع في دائرة تلك المعايير لتشمل ما اصطلح عليه حديثاً بـ (المعايير النصية) الأخرى على غرار ما يتصل منها بمن يتعامل مع النص كالقصدية والمقبولية ، وما يتصل منها كذلك بالسياق الثقافي والمادي كالموقفية والإخبارية والتناص ، وعند التحقيق فأغلب الظن أن المعايير النصية التي ابتدعها الغربيون وحاول تمام وغيره تطبيقها على العربية ونحوها إنما هي بمعنى تلك المقاييس نفسها التي تحدث عنها ابن جني في باب مقاييس العربية .

وإذا تتبعت معي هذا التحليل والمراجعة لباب "في مقاييس العربية" من "الخصائص" جملة وتفصيلاً ، وبالموازاة مع حديثه عن علل المنع من الصرف وعن فكرة الفرعية والأصلية ، نجد ابن جني قد ذكر من تلك المقاييس مع التمثيل : العلامة الإعرابية الأصلية والفرعية في الاسم المفرد والمثنى والجمع ، وذكر الصيغة أو البنية في الفعل الماضي المثال والمضارع المبدوء بحرف المضارعة ، فيما لا يخلو ذلك الباب نفسه من حديث بارز عن التعليل والقياس وعن علل البناء والإعراب على ما ورد في شروح معظم الدارسين وتفسيراتهم.

فتلك إذاً هي بعض القرائن اللفظية والمعنوية كما سماها تمام حسان وهي تمثل بعض معايير الاتساق والانسجام في ما يعرف بلسانيات النص، وقد يعنى بالمقاييس أيضاً أنساق التركيب وقواعد نظم الكلام، لأن هناك فرقاً كبيراً بينها وبين الموازين الصرفية لبنية الكلمة المفردة من جهة ، وبينها وبين القياس التعليلي، الذي عرف بعض الغلو فيه عند التعليل بالعلل الثواني والثوالث ، ومرد ذلك كله هو التركيز على الدلالة اللفظية ودلالة الصيغة ، وإهمال الدلالة المعنوية ، فهذا ما لا نجده عند ابن جني حسب ما أشرتُ إليه سابقاً ، وربما اختلف مع غيره الذين يرون أن النحو كله قياس على رأي ابن الأنباري في الرد على منكري القياس.

فالواضح أن باستقلالية النحو وانعزاله عن بقية علوم العربية ـ قبل ابن جني ومرورا بابن الطراوة وغيرهما من العلماء ذوي النظر الثاقب والعلم الراسخ ـ ظلّ التململ يسيطر على منهج النحو وعلى مسار الدراسات اللغوية واتجاهاتها بسبب إهمال فكرة العمل للمتكلم التي أقرها الأول ، وباطّراح كثير من العوامل المعنوية وأساسها عامل القصد الذي أقرّه الثاني ، فمقاييس العربية عند ابن جني تمثل بذاتها تلك العلائق القرائنية وغيرها من المعايير النصية التي سبق الغربيون إلى اكتشافها في لغاتهم ، إذ هي الأنسب لمدار البحث في منهج علم اللغة الحديث.

وإذا كنا قد أطلنا الحديث عن مقاييس ابن جني في فهم (العربية) وهي النحو بجماع علومه وعن طبيعته، إذ هو صناعة علمية ، ثم عن علاقة علوم (العربية) بعضها ببعض ، إنما لنثبت بذلك خاصية " الشمول" إحدى قواعد ما سمّاه تمام حسان "العلم المضبوط" وإن كان عمد إلى تبديل المصطلح فقط، ذلك أنّ صناعة النحو عند القدماء هي نفسها العلم المضبوط عند المحدثين ، وقواعد العلم المضبوط هي نفسها قواعد الصناعة، غير أنّ تمّام قد فصّل الفرق بين الصناعة والمعرفة عند القدماء ، فالأولى عندهم هي علم حاصل بالتمرن، والثانية علم حاصل دونه، ويقابل الصناعة والمعرفة عند المحدثين ما سموه العلم المضبوط والعلم غير المضبوط ، وأعتقد أن تمّام نفسه لم يعتمد مبدأ الشمول فيجمع بين علوم اللغة ، كما لم يتوسع لتشمل دراسته ما يتصل منها بمن يتعامل مع النص (القصدية والمقبولية) وما يتصل منها كذلك بالسياق الثقافي والمادي(الموقفية والإخبارية والتناص)، بل إنّ جهوده في توسعه تركزت على ربط اللغة بجانبها الاجتماعي والإنساني وفق المنهج الوصفي بتأثر من مبادئ الغربيين فيه ، من خلال محاولة نسخ نظرية النحو وإسقاط نظرية البلاغة بديلاً عنها ، وبالدعوة إلى إلغاء العامل والإعرابين التقديري والمحلي، تحت اسم ومصطلح جديد سمّاه (القرائن اللفظية والمعنوية)، التي تمثل فقط معياري "الاتساق" و"الانسجام" دون سواهما من بقية المعايير، ضمن منظومة معايير علم اللغة النصي أو اللسانيات النصية.

الخاتمة: من كل ما سبق نخلص إلى القول بأن علم النحو هو علم العربية بكل المقاييس العلمية وبمفهومه الشامل الذي حدّه به ابن جني، وأن المنهج القويم في علم اللغة هو المنهج التحليلي الاستنباطي الذي نهجه ابن جني وجسد نظراته وتطبيقاته على النحو(علم العربية) بمفهومه الشامل لجميع علوم اللغة مجتمعة وفق مقاييس العلم نظرياً وتطبيقياً وأقامه على أصول ومبادئ فكرية عريقة منبثقة من صميم الفكري اللغوي العربي الأصيل الذي يعبر عن مقدرات الأمة في فكرها وثقافتها وجميع مقومات شخصيتها.

وانطلاقاً من منهج ابن جني في الدرس اللغوي الذي حاولنا رصد بعض معالمه ، يتضح لنا أمران :

الأول: أن القياس النحوي عند ابن جني هو يعتمد فيه على الاستدلال الذهني، لا العقلي ولا المنطقي، ولا الرياضي.

والثاني: أن ابن جني في فكره اللغوي ودرسه النحوي التحليلي يجمع بين كل علوم اللغة، وما عنوان كتابه "الخصائص" قبل محتواه إلا أقوى دليل على هذا، إذ يعد الكتاب الثاني بعد سيبويه .

فكتاب الخصائص هو كتاب متخصص في رصد خصائص اللغة من جانبها الأدائي الاستعمالي الوظيفي سواء لدى المتكلم الفرد ، إذ هو أول من أيقن أنّ الإعراب ـ وهو أبرز خصائص العربية ـ إنما هو للمتكلم على مستوى الفرد ، أما على مستوى الجماعة اللغوية، فقد كشف فيه ابن جني عن طبيعة اللغة العربية كأداة للتواصل،

كأي لغة بشرية ، وعلى العموم، فإن بقية أبواب الكتاب، هي في علم اللغة وخصائص العربية ككل لا يتجزأ، ومباحثه تختص باللّغة العربية: فلسفتها، ومشكلاتها ، ومجمل قضاياها من حيث التركيب والأداء مع ربط الكلام في استعماله بالمتكلم ، وابن جني نفسه يصرح عن طبيعة كتاب الخصائص في مقدمته. وإفصاحه عن طبيعة مباحثه المتعلقة بعلم اللغة العام لا علم النحو ولا غيره منفرداً أو معزولاً ، وهذا دليل على أن كتاب "الخصائص" هو كتاب لا يقتصر على أصول النحو، بل يشمل علم اللغة العام ، بما في ذلك مجال استعمال اللغة وتداولها على اعتبار أنّ محدث الكلام المعرب في اللغة هو المتكلم ، وذلك هو المجال الذي سبق ابن جني إلى البحث فيه، كيف لا ، وهو عالم اللغة الفذ بلا منافس، قبل غيره من علمائنا العرب القدماء والمحدثين وقبل الغربيين.

وبتوسع ابن جني في مجال استعمال اللغة ومزجه بين علومها ، هو يختلف عن كثير من النحاة الذين أثقلوا كاهل اللغة والنحو بقواعد علم الأصول وعلم الكلام ومنطق الفلسفة، بما أقحموه في الدرس اللغوي من تعاريف مختلفة ومتباينة ، ومن مصطلحات ممزوجة ومتشابكة، وأعني بالمصطلحات الممزوجة تلك المشتركة بين أكثر من علم واحد ، نحو مصطلح " الحد " ، " الحكم " ،" النسبة " ،"الموضوع" و"المحمول" بين اللغويين والفقهاء والأصوليين والمناطقة وعلماء الكلام .

إن كثيراً من تلك التعاريف والمصطلحات في مناهج القدماء ظلت محصورة ضمن مفاهيم لا تخرج عن نطاق اللغة في ذاتها، ذلك : « أن النظرية اللغوية العامة هي التي تقدم عددا كبيراً من المفاهيم التي تثري العلوم وتفسر ظواهرها، وما المفهوم إلا مصطلح يستخدمه أصحاب العلم الواحد لتوصيف ظاهرة ما، مما يساعد في عملية الفهم والتواصل فيما بينهم ومنعا للخلط والتضارب، غير أنّ التفسير والحكم الصحيح إنما يتوقف بصفة أساسية على مدى دقة وصحة المفاهيم المعيارية وتلك الصور الذهنية المجردة المعبرة عن ماهية الظواهر المختلفة، ذلك لأن كل "مفهوم" يتضمن خبرة علمية مميزة، إضافة إلى أنه يعد تلخيصاً لكثير من الحقائق التي تكوّن النظرية.» (عبد المعطي، 1981م، صفحة 12 ـ 13)، وهنا يختلف الناس ويتفاوتون في إدراك حقائق الأشياء لاختلاف مفاهيمهم التي اتخذوها معايير لهم في تفسيرها.

فمنهج ابن جني في الدرس النحوي خصوصاً واللغوي عموماً هو منهج النحو التعليمي النظري والتطبيقي لما يتميز به من الاعتماد على الاستدلال الذهني والتحليل العلمي بالإضافة إلى كثرة التمثيل من المنقول الفصيح أو الكلام المستعمل المبذول الشائع ، لأنه فهم طبيعة اللغة فدرسها بجماع علومها ، كما فهم طبيعة النحو واللغة معاً

وتوسع في ربطهما ببعدهما الإنساني التداولي ، وقد جرى هذا وفق معايير وضعها هو لنفسه ، وسار عليها في منهجه .

والذي نقرؤه من مفاهيم تخص وجهة نظر ابن جني للدرس اللغوي وما نستنبطه من تعاريفه السابقة :

ـ أنّ علم النحو هو علم التركيب بمختلف أنماطه وصوره ، وبذلك هو كلام وليس جملة، ، وليس النحو عنده علماً مجردا معزولاً عن المتكلم الذي ينبغي أن ينحو فيه سنن الناطقين بالعربية الفصيحة، وفقاً لقواعد الإعراب.

ـ أن طبيعة علم النحو لها مظهران : مظهر طبيعي يمثله المنقول من كلام العرب الفصحاء بحسب ما جاء فيه من ظواهر أساسها الإعراب وقواعده ، ومظهر اجتماعي يجسده استعمال التراكيب كأداة للتخاطب بين الناس، وهذا هو البعد التداولي للغة.

ـ أن النحو علم نظري ينبغي أن نميز فيه بين المنهج العلمي والمنهج التعليمي.

أما مفهوم القياس عند ابن جني ، فهو بمعنى القياس النظري القائم على الاستدلال الذهني لا القياس التعليلي ، وبهذا المعنى يقترب القياس من مفهوم المقاييس وهي نفسها المعايير النصية التي رصدها المعاصرون لنظام تراكيب الكلام عند تداولها عبر أركان العملية التواصلية، وهكذا يكون ابن جني قد توسع في مفاهيم نظرية اللغة من منظور يقارب إلى حدّ بعيد وجهة نظر علم اللغة الحديث.

بهذا يمكن القول عن نظام نحو اللغة العربية أنه لا يضاهيه نظام أي لغة أخرى، إذا أريد المقارنة به، ويعدّ واهماً من يشك في أصالة الفكر العربي الذي وضع نظريته الأولى علماؤنا العرب القدماء منذ البذرة الأولى لنشأة النحو، حيث اصطلحوا على تسميته بـ (العربية) من باب تغليب العام على الخاص، وليس ذلك جزافاً، فالعام هو اللغة كوحدة متجانسة بجماع علومها لا ينفك أحدها عن الآخر، أو(علم اللغة) وسمّى سيبويه النحو بـ(علم ما العربية) في أول باب من أول كتاب نحوي، والخاص هو علم النحو دون سواه من العلوم، وقد سمّوه كذلك بـ(الإعراب) من باب تغليب أخص خصائصه على عموم ظواهره، كما أقول عن منهج البحث في الدرس النحوي العربي هو المنهج التكاملي التحليلي الاستنباطي، وهذا من جانب النحو العلمي، لا التوليدي ولا التحويلي ولا البنيوي وما إلى ذلك. وإذا تهيّأ لبعضهم العزل بين النحو والبلاغة ، فإن العلاقة بينهما متداخلة ومتكاملة لأنّ كلاًّ منهما يشغل جانباً أساسياً من اللغة، بحيث لا يمكن أن تتمّ عملية التواصل اللغوي إلاّ باستيفاء هذين الجانبيْن كليهما.... لا نستطيع أن نقف عند حدود الصحة النحوية ونكتفي بها في عملية التخاطب. لأن المفهوم الصحيح

للنحو هو نحو المعاني الذي يوافق سنن العرب في كلامها لا نحو الأشكال الذي يطمس المعنى ويمحو أثر الفنّ والإبداع في التخاطب. ذلك أنّ قيمة الخطاب تكمن في إصابة المعنى وحسْن إيصاله إلى المخاطَب. وعلى هذا، فلا فائدة من فصل النحو عن البلاغة، بل إنّ ذلك غيْر ممكن لأنّ طبيعة الكلام تقتضي اتحادهما كاتحاد الشكل والمضمون.) ، كما أن للعربية نحواً واحداً هو نحو الكلام (مبنى ومعنى) في كل ما يمكن أن يقال من منطوق مفيد على مستوى لغة التواصل أو لغة مستوى لغة الإبداع ، بما ينتجه العقل البشري.

وأما ما يخص اللغة العربية من جانب اجتماعيتها ووظيفتها التواصلية ككل اللغات الإنسانية، فليس ينبغي أن يعاد النظر في طبيعة اللغة ذاتها أو نحوها، بل في مناهج دراسة علومها متكاملة، وهذا من جانب النحو التعليمي للغة أثناء استعمالها وفق قيم التداولية، وبما أنّ العربية هي لغة إنسانية، وقد تكلّم بها العباد من البشر قبل نزول القرآن الكريم، فهي ليست وحياً ولا إلهاماً، وتلك الوظيفة الأساسية لإنسانية للغة هي التي كشف عنها ابن جني منذ عهده بما حدّ به اللغة أو عرّف به النحو ، وكذلك تُعدُّ فكرة أنّ العمل للمتكلم وهو فاعل الكلام قد سبق ابن جني إلى الكشف عن هذا الجانب من اللغة ، إذا صحّت نسبتها إليه، منذ عصور عديدة من الزمن، وعلى أساس هذه الفكرة انطلقت الدراسات والأبحاث عند العرب من العلماء والباحثين المعاصرين، فاسترشدوا بتلك الفكرة مقتدين بنظرات علماء العرب تارة، وملتفتين أو متأثرين بنظرات الغربيين تارة أخرى.

وإذا اتهم النحو العربي من خلال نظريته وأنظمته بالصعوبة والتعقيد، فإن ذلك يرجع بالأساس إلى طبيعة اللغة في ذاتها، وليس العلماء هم من فرض نظاما لغوياً وأوجبوا استعماله كي يصح أن نحكم على اللغة بأنها معيارية، كلا، وإنما أصول نظرية النحو العربي هي القائمة على دراسة اللغة من خلال رصد الأنظمة اللغوية المختلفة وتسجيلها، لأنّ اللغة باعتبار مناهج دراستها وصفية دوماً لا معيارية، وهنا يكمن الفرق بين الأنظمة والنظريات، « فالأنظمة هي تلك الأوجه التي ترد عليها أفراد الظاهرة وتحكمها، أما النظريات، فهي تلك الفروض الذهنية التي يضعها العلماء في تحديدهم للأنظمة أي أن النظريات هي المقابل الذهني الذي يضعه العلماء للأنظمة التي تقوم في الظاهرة نفسها لا في عقول العلماء.» (عبد الدايم، 2006م، صفحة 23)، فالنتيجة إذن : أن النظام ثابت بالمنقول من مصادر اللغة وعلى رأسها القرآن الكريم، وبالمستعمل من كلام العرب الفصحاء، أما النظرية هي متغيرة، فقد تكون ناقصة إذ تخضع للتطور وللنقض، إذا قام عنها بديل أحسن منها، أو ربما تتجدد بتجدد ظواهرها الطبيعية وغيرها.

فأسباب تعقيد علم النحو وجموده تعزى بالأساس إلى الاختلال الكبير الحاصل في ضبط المفاهيم والمصطلحات، بالإضافة إلى انعدام التفريق ـ في الدرس النحوي على وجه الخصوص ـ بين النحو العلمي والتعليمي، ثم بين العلل التعليمية والقياسية من جهة أولى، والعلل الجدلية من جهة ثانية، وقد أدى ذلك التعقيد إلى صعوبة تعليم العربية وتعلّمها، وإلى جمود الفكر اللغوي، وبجموده تعطل استعمال اللغة وتداولها نطقاً وكتابة، سواء بين الناطقين بها أو غيرهم، وما أسباب هذا التعقيد والجمود إلا انعدام التفريق بين النحو العلمي والتعليمي، ثم بين العلل التعليمية والقياسية من جهة أولى، والعلل الجدلية من جهة ثانية، في الدرس النحوي على وجه الخصوص.

ولعل مستقبل الدراسات اللغوية في زماننا هذا يعد بإيجاد حلول للقضايا اللغوية ومشكلاتها بعد تشخيص الأدواء وإبراز مواطن الخلل، والظاهر أن جل الجهود النزيهة تتجه نحو تحقيق هذا المسعى النبيل، ولا يتطلب إلا إمعان النظر وتدقيقه، مع كثير من الحزم والعزم، لأن تلك القضايا والمشكلات كانت ولا تزال تحديّات تقف عائقاً يحول دون تقدّم الأمة وازدهارها ووحدتها.

ولا يسعني الآن إلا القول بأن اللغة العربية المنطوقة هي وعاء فكر الإنسان العربي عبر الأزمنة والأمكنة، كما أنّ الكلام العربي المكتوب هو رصيدها المعرفي على مرّ التاريخ، وكلاهما يستوجبان الحفاظ عليهما وحمايتهما مما يضرّ بهما، لأنهما جزء لا يتجزأ من هوية الأمة وشخصية أوطانها.

قائمة المصادر والمراجع:

01 ـ ابن جني أبو الفتح عثمان : الخصائص ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة: الرابعة (د ت).

02 ـ عبد المعطي عبد الباسط : اتجاهات نظرية في علم الاجتماع عالم المعرفة منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1981 م

03 ـ محمد الخضر حسين الجزائري الإمام : موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين ، جمعها وضبطها: علي الرضا الحسيني ، دار النوادر، سوريا ، الطبعة: الأولى، 1431 هـ – 2010 م

04 ـ محمد عبد العزيز عبد الدايم : النظرية اللغوية في التراث العربي دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. 2006 م مصر القاهرة .